الاتجاهات الجيوسياسيَّة في السياسة الروسية

د. زياد منصور

باحث في التاريخ الروسي

 من السمات المميزة للسياسة الداخلية والخارجية لروسيا منذ تشكلها كدولة ذات سيادة، ومشارك في العلاقات الدولية، بروز الأهمية المتزايدة للعوامل الجيوسياسية، أي العوامل المرتبطة بحل المشاكل السياسية الإقليمية، وضمان الأولويات السياسية الإقليمية الحقيقية وإنجاز الأهداف المنشودة والموضوعة .

 فالجغرافيا السياسية بمعناها العلمي، كما عرفها مؤلِّف هذا المصطلح ر. تشيلين، تعني "دراسة الدولة ككائن جغرافي"[[1]](#footnote-1). بمعنى آخر، فإن المسألة الرّئَيسية في النهج الجيوسياسي للدَّولة هو إظهار ارتباطها الذي لا ينفصم مع الإقليم والفضاء الجغرافي. أطلق مؤسسو الجغرافيا السياسية راتزل وتشيلين F. Ratzel و R. Kjellen نظرية ربطوا فيها قضايا الجيوبوليتيك بحجم ومساحة الدولة، واعتبروا النمو المكاني بمثابة قانون معين لتطور الدول.

من الواضح أن النمو الإقليمي للدول في العصر الحديث ليس نمطًا قائمًا بحد ذاته، ولكن بشكل عام، أصبحت سياسة الدول، هي تلك السياسة التي تحددها مصالحها الإقليمية كحقيقة واضحة لا لبس فيها. بحيث تستند سياسة أي دولة، بهذا الشكل أو ذاك على أهميَّة الأخذ في الاعتبار العامل الجيوسياسي السياسي الإقليمي، كي تضمن حل المهام ذات الصلة، وهي: ضمان سلامة أراضي الدولة وأمنها، وفعالية سيطرتها، وحدودها. والحماية والوصول إلى الاتصالات والانترنيت وما إلى ذلك.

 علاوة على ذلك، نجد في السياسة الدولية الحديثة، أنَّ هناك عدد كبير من الصراعات الدولية ذات طبيعة جيوسياسية وسياسية وإقليمية: وقد تكون نزاعات حول ملكية ووضعية منطقة معينة. ومن الأمثلة النموذجية على ذلك هو الصراع في فلسطين حول ملكية القدس ووضعها. تشمل هذه الصراعات جميع الصراعات المتعلقة بدول ما بعد الاتحاد السوفيتي غير المعترف بها (المعلنة ذاتيا). بالإضافة إلى ذلك، في السياسة الدولية الحديثة، هناك رغبة واضحة لدى الدول القوية في ضمان نفوذها الجيوسياسي في منطقة معينة من خلال المساعدة الاقتصادية أو العسكرية، وإبرام التحالفات، والانضمام إلى الجمعيَّات الدولية. وهذا هو السبب في أن انضمام دول ما بعد الاشتراكية في أوروبا الشرقية إلى الناتو كان ولا يزال يشكل تحديًا لأمنها من قبل روسيا. ولا بدَّ من القول أيضًا إن مشاركة روسيا في الصراع السوري إلى جانب الحكومة ووجودها العسكري في هذا البلد يرجع أيضًا إلى العامل الجيوسياسي.

 وبعبارة أخرى، لم يعد تحديد السياسة الدولية الحديثة من خلال التنافس الأيديولوجي والسياسي بين أنظمة الرأسمالية والاشتراكية منتشرًا، كما كان الأمر خلال الحرب الباردة. اليوم، تسترشد الدول، التي يوجد في معظمها أنظمة سياسية واقتصادية متشابهة بمصالحها الوطنية وليس الطبقية، ومن بينها المصالح والأهداف الجيوسياسية (السياسية الإقليمية) التي تحتل مكانًا مهمًّا في هذه السياسة.

 بالنسبة لروسيا الحديثة، ترتبط الأهمية الخاصة للعامل الجيوسياسي، في المقام الأول، بالعواقب الجيوسياسية لانهيار الاتِّحاد السوفياتي. لقد انتهى وجود هذا الأخير باعتباره «واقعًا جيوسياسيًا»، وتم تثبيت هذا الأمر في اتفاقية مينسك (بيلوفيجسكايا) بين زعماء روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا حول انشاء اتحاد الدول المستقلة والانسلاخ عن الكيان الفيديرالي الذي كان يسمى الاتحاد السوفياتي. لقد كان للأمر دون شك عواقب وخيمة على روسيا نفسها باعتبارها "واقعًا جيوسياسيًا" جديدًا.

وتشمل هذه العواقب خسارة جزء كبير من أراضي الدولة، وهو أكثر أهمية وخطورة مما كان عليه بعد انهيار الإمبراطورية الروسية. علاوة على ذلك، نحن لا نتحدث فقط عن حجم هذه الأراضي، بل عن جودتها: فقد ظلت أهم طرق المواصلات والموانئ البحرية ومناطق استخراج موارد الطاقة على أراضي الجمهوريات الاتحادية السابقة (كازخستان، أوكرانيا، إلخ). بالإضافة إلى ذلك، نشأت مشكلة الحدود الجديدة مع الدول المجاورة.

أدى انهيار العلاقات الاقتصادية بين الجمهوريات إلى أزمة اقتصادية عميقة. كما أدى انهيار الفضاء العسكري الاستراتيجي الموحد إلى ظهور مشاكل جديدة تتعلق بالأمن القومي. بمعنى آخر، كانت المشاكل الجيوسياسية هي التي برزت إلى الواجهة، وكان حلها هو الأولوية الرئيسية للدولة الروسية الجديدة.

 بالإضافة إلى ذلك، زادت أهمية العامل الجيوسياسي فيما يتعلق بالتحول الجذري لطبيعة الدولة ذاتها. كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية دولة شيوعية، تم تحديد جوهرها واستراتيجيتها من خلال الأهداف الأيديولوجية - بناء الشيوعية، والثورة العالمية، ومناهضة الإمبريالية إلخ. تخلَّت روسيا عن هذه الأهداف والأولويات، وعن النظام الاجتماعي الاشتراكي نفسه نتيجة لإصلاحات السوق الليبرالية. كتب فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين، تلخيصًا للنتائج الأولى لهذه الإصلاحات، "لقد دخلنا في المسار الرئيسي الذي تتَّبعه البشرية جمعاء".

 ومع ذلك، بعد أن شرعت روسيا في اتباع هذا المسار الرئيسي، وأصبحت دولة تتمتَّع بنفس النظام الاجتماعي مثل معظم البلدان الأخرى، وخاصة الدول الغربية، لم تفقد روسيا تفردها الجيوسياسي. وظلَّت من أكبر دول العالم من حيث المساحة ، مع إمكانات هائلة من الموارد الطبيعية، والقوة العسكرية، وتحتل موقعًا مركزيًا في أوراسيا. وبفضل موقعها الجغرافي، صار لديها مصالح وأهداف في أوروبا ومنطقة آسيا والمحيط الهادئ والشرق الأوسط، كما أنَّ مشاكل أمن روسا القومي لها أيضاً أبعاد أوراسية وعالمية.

 وقد حدد هذا التفرد الجيوسياسي مسبقا الأهمية الخاصة لتعيين الأولويات الجيواستراتيجية ، والتي انعكست على المستوى النظري وعلى مستوى السياسة الواقعية. على المستوى النظري ، برزت تجلياته ، أولا وقبل كل شيء ، في إعادة التأهيل العلمي للجغرافيا السياسية الكلاسيكية أو التقليدية نفسها.

يذكر أنَّه لم يتم الاعتراف بهذا الأخير (الجيوبوليتيك) كنظام علمي في العهد السوفيتي، بل وصم في حينه بأنه نوع من العلوم الزائفة، والتعاليم الزائفة والرجعية المرتبطة بالسياسة الإمبريالية، والنازية، وما إلى ذلك.

في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، شهدت الجغرافيا السياسية نموا سريعا وانتشرت بشكل متزايد في روسيا، بدأ نشر أعمال الممثلين البارزين للجغرافيا السياسية الغربية ودراستها وتطبيقها كأساس منهجي، مثل أعمال ف.راتزل ، ر. تشيلين ، أ. ماهان ، هـ. ماكيندر ، ن. سبيكمان ، إلخ. أصبح مفهوم المنطقة المحورية-قلب الأرض، الذي صاغه هـ. ماكيندر في النصف الأول من القرن العشرين، والذي كان في الماضي يشكِّل أراضي الإمبراطورية الروسية، ذا صلة خاصة بالجغرافيا السياسية المحلية.

 لقد كانت القوة والنفوذ والسيطرة على هذه المنطقة، وفقا لماكيندر، هي التي فتحت إمكانية هيمنة هذه المنطقة في السياسة العالمية. بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ، تم تجزئة وتقسيم قلب الأرض، وتقلَّصت أراضي روسيا. أدى انهيار المنظومة الاشتراكي في أوروبا الشرقية ودخول دول أوروبا الشرقية لاحقا إلى الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي إلى فقدان سيطرة روسيا على هذه المنطقة الفرعية من قلب الأرض أيضًا[[2]](#footnote-2).

 يعتبر كتاب بريجنسكي "رقعة الشطرنج الكبرى الذي نُشر في التسعينيات أكثر صلة بالموضوع. حيث صاغ المؤلف نسخة حديثة عن مفهوم المنطقة الرئيسية وهي أوراسيا باعتبارها الساحة الرئيسية للسياسة العالمية.

رأى بريجنسكي Z. Brzezinski أنَّ هناك صلة مباشرة بين مسألة الحفاظ على قيادة العالم الأمريكي والهيمنة في أوراسيا. وبناء على ذلك، دعا الولايات المتحدة إلى منع ظهور أي تحالف بين الدول في أوراسيا يمكن أن يتحدى قيادتها[[3]](#footnote-3). وفيما يتعلق بروسيا، اعتبر أنَّ من الأفضل تحويلها إلى كونفدرالية، ودعا أيضا إلى منع تقاربها مع أوكرانيا. أصبحت كل هذه الأفكار من أكثر الأفكار التي تم الاستشهاد بها وانتقادها في الأدبيات السياسية الروسية.

 كان المظهر الأكثر أهمية للوعي بأهمية العامل الجيوسياسي بالنسبة لروسيا هو ظهور الخطاب الجيوسياسي في العلوم السياسية المحلية. تم حل المشكلات النظرية والتطبيقية العامة في أعمال العلماء الروس المكرسة للقضايا الجيوسياسية، خصوصًا فيما يتعلق بالجغرافيا السياسية الروسية. ونتيجة لذلك، تمت صياغة العديد من المفاهيم المختلفة للاستراتيجية الجيواستراتيجية الروسية في الأدبيات العلمية الروسية: من الأطلسية، أي التكامل والشراكة مع الغرب، إلى معاداة الأطلسي، أي معارضة الغرب، ومن "المسافة المتساوية" إلى "القرب المتساوي". إلى مراكز النفوذ العالمية. كما تمَّت صياغة النسخة الأصلية للجغرافيا السياسية الروسية من خلال أعمال غينادي أندرييفيتش G. A. Zyuganov. حيث تضمنت استراتيجية ماركسية بالكامل كبديل مناهض لرأسمالية روسيا وأولويات جيوسياسية بحتة: استعادة السيطرة على قلب الأرض، والنضال من أجل عالم متعدد الأقطاب.

 بشكل عام، يمكن القول أنه في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، تمكنت العلوم السياسية الروسية ليس فقط من إتقان الأساس النظري الجيوسياسي الغربي، ولكن بالاعتماد عليه، وصلت إلى مستوى عال من أبحاثها الخاصة. في السياسة العملية، تجلى دور العامل الجيوسياسي في السياسة الداخلية والإقليمية والوطنية في المقام الأول، وخاصة في السياسة الخارجية. في نهاية الأمر، يعد التوحيد المفاهيمي للأولويات الجيوسياسية في مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي أول وثيقة من هذا القبيل، تمت الموافقة عليها في عام 1992، وهي تتحدث عن الوضع الجيوسياسي لروسيا ويتم تسليط الضوء على الاتجاهات الرئيسية للسياسة الخارجية من خلال الإشارة إلى مناطق العالم الرئيسية وأهميتها.

 في المفاهيم اللاحقة، بما في ذلك المفهوم الأحدث، الذي وافق عليه رئيس الاتحاد الروسي بوتين في عام 2016، تم تسليط الضوء على قسم "الأولويات الإقليمية"، والذي يعكس بدقة الأولويات الجيوسياسية (أو الجيواستراتيجية) لروسيا. وفي الوقت نفسه، يبدو لنا أنَّ الترتيب الذي تقع فيه هذه المناطق له أهمية كبيرة، إذ هناك ترتيب تنازلي لهذه المناطق من حيث الأهمية بالنسبة روسيا. في الإجمال، تحدد هذه الوثيقة 7 أولويات رئيسية:

1- رابطة الدول المستقلة؛

2- الاتحاد الأوروبي؛

3- الولايات المتحدة الأمريكية؛

4- منطقة آسيا والمحيط الهادئ؛

5- الشرق الأوسط وشمال أفريقيا؛

6- أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي؛

7) أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى؛

 في رأينا فإنَّ هذه المجموعة من الاتجاهات الدولية الرئيسية للسياسة الروسية على مدى العقدين ونصف العقد الماضيين سوف تستمر في المرحلة المقبلة، من المهم بشكل أساسي ألا يأخذ ترتيب العناصر داخل نظام الأولويات في الاعتبار التقلبات اللحظية في البنية التحتية الجيوسياسية فحسب، بل يستند أيضًا إلى المبادئ الأساسية للوضعية الثقافية والحضارية لروسيا. ومن الناحية المثالية، ينبغي أن تكون هذه القائمة انعكاس للتطبيق الشامل للنهج الجيوسياسي والحضاري، آخذا بعين الاعتبارات المتغيرات التي قد تحصل.

 ولا يزال الاتجاه الأول هو الأكثر منطقية ليشمل جميع دول ما بعد الاتحاد السوفييتي، باستثناء لاتفيا وليتوانيا وإستونيا، التي أصبحت جزءا من الاتحاد الأوروبي. تجدر الإشارة إلى أن البلدان التي تنتمي إلى هذا الاتجاه في السياسة الخارجية الروسية، ، لا تنتمي إلى نفس الحضارة فحسب، بل تنقسم أيضًا بشكل واضح إلى مجموعتين: العالم الأرثوذكسي (أوكرانيا، بيلاروسيا، مولدوفا، أرمينيا، جورجيا) والعالم الإسلامي (أذربيجان، كازاخستان، قيرغيزستان، أوزبكستان، تركمانستان، طاجيكستان).

 في الوقت نفسه، فإن السنوات العديدة التي عاشتها هذه الجمهوريات معًا، أولاً كجزء من الإمبراطورية الروسية، ثم كجمهوريات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، تتيح لنا اعتبار كل هذه الدول بمثابة مكونات لحضارة واحدة، لا يزال رمزها الثقافي هو كما هو. - يسمى هومو سوفيتيكوس. ولا تقل أهمية عن الوحدة الجيوسياسية لبلدان رابطة الدول المستقلة، والتي، مثل روسيا، يمكن تصنيفها كجزء من قلب الأرض - القلب القاري للكوكب.

 الأولويتان الثانية والثالثة هي الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة هما اللتان حددهما مفهومها السياسة الخارجية الروسية ، من وجهة نظر حضارية ، يمكن دمجها في ناقل مشترك – العالم الغربي، الذي كان منذ فترة طويلة عنصرا تقليديا في الفهم الروسي للبنية الاجتماعية والثقافية للعالم.

من الواضح بنفس القدر الوحدة الجيوسياسية للقارتين، وليس أقلها ما يتعلق بأنشطة الناتو. في مفاهيم أوائل القرن العشرين نجد أن الهيكل الجيوسياسي التقليدي للعالم، الذي وصفه هـ. ماكيندر في عام 1904 ، يتغير تدريجيا.. كانت أوروبا الغربية تعتبر جزءا من ريملاند ، القوس الساحلي المحيط بالقلب، وكانت أمريكا الشمالية جزءا من الهلال الخارجي الواقع خارج جزيرة العالم (أوراسيا + إفريقيا). في فترة ما بعد الحرب، من الممكن أن نذكر ليس فقط الوحدة الثقافية، ولكن أيضا الوحدة الجيوسياسية لأوروبا وأمريكا الشمالية: فقد اكتسبت الأخيرة مكانة عنصر جديد في الريملاند الممتد أو الموسع.

 وفي الوقت نفسه، فإن الموقف السياسي لوزارة الخارجية الروسية، الذي يقسم أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية كجهات فاعلة دولية، هو أيضًا منطقي تمامًا: فالاتجاهات الحديثة ذات الطبيعة الجيواستراتيجية (انتقاد الاتحاد الأوروبي لموقف الولايات المتحدة بشأن قضايا الأمن الدولي، "التجارة"، والحروب، وما إلى ذلك. تشير كلِّها إلى أنَّ المشروع الأطلسي للغرب المتحد لا يزال بعيدًا عن الاكتمال. وبالتالي، يمكن تنظيم اتصالات السياسة الخارجية الروسية مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية بطرق مختلفة.

 ينتمي الاتجاهان الرابع والخامس للجغرافيا السياسية الخارجية الروسية أيضًا بشكل أساسي إلى منطقة ريملاند. في أعمال مؤلفي القرن التاسع عشر. لقد اتحد كِلا هذين الاتجاهين بمفهوم "الشرق العالمي"، لكننا، على غرار مؤلفي مفهوم السياسة الخارجية، نقترح الفصل بين الحضارتين الشرقية والإسلامية، لأنهما تبتعدان أكثر فأكثر عن بعضهما البعض ليس فقط ثقافياً، ولكن أيضاً سياسياً: يمكن اعتبار رموز المواجهة المتنامية بينهما الصراع الهندي الباكستاني الذي طال أمده، فضلاً عن الاشتباكات الداخلية في إندونيسيا والفيلبين.

في الوقت نفسه، ستتزامن الحدود الإقليمية للحضارة الشرقية مع منطقة آسيا والمحيط الهادئ (باستثناء أمريكا وأوقيانوسيا)، وتتميز في بنيتها بثلاثة مكونات. يمكن التمييز بين اثنين منهما على أساس ديني - العالم الهندوسي (الهند ونيبال وبوتان) والعالم البوذي (بما في ذلك اليابان الشنتو القريبة منه). سيكون من المنطقي تعيين العنصر الثالث للعالم الإلحادي (الصين وكوريا الشمالية وفيتنام)، لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا - ويرجع ذلك أساسًا إلى العدد المنخفض من المؤمنين في هذه البلدان. أما الحضارة الإسلامية فيمكن تمييزها في تكوينها عن ثلاثة عناصر جيوسياسية (الشرق الأدنى والشرق الأوسط وشمال أفريقيا) وعنصرين دينيين وثقافيين (سني وشيعي).

تشمل العوامل الثلاثة الأخيرة للسياسة الخارجية دول أمريكا الجنوبية والوسطى وأفريقيا جنوب الصحراء وأوقيانوسيا. مع كل الانتشار الجغرافي، تحتل هذه المناطق من العالم نفس الموقع-المحيطي-تقريبا في هيكل أولويات السياسة الخارجية لروسيا. ومع ذلك ، قد يتغير هذا الوضع قريبا: بفضل العولمة المستمرة ، ونمو البلدان النامية، ونشاط جمعيات مثل البريكس وحركة عدم الانحياز، ستزداد أهمية المناطق النائية من الكوكب بالنسبة لروسيا بشكل مطرد.

في الوقت الحالي، يتجلى ذلك في الاتصالات السياسية والاقتصادية الناجحة مع دول مثل البرازيل وفنزويلا وكوبا والمكسيك وجنوب إفريقيا وأستراليا. بشكل عام، يمكن الإشارة إلى أن هذه التوجهات الجيوستراتيجية الخارجية لروسيا ليس لديها الكثير من القواسم المشتركة، باستثناء أن جميع الحضارات المتضمنة فيها تصنف عادة على أنها جديدة وواعدة وناشئة. وفي الوقت نفسه، فإن القرب الجيوسياسي للمناطق التابعة لهذا المتجه ليس موضع شك. قبل مائة عام، أرجعتهم كلاسيكيات الجغرافيا السياسية إلى الهلال الخارجي، الذي ليس له تأثير كبير على العمليات العالمية. اليوم الوضع يتغير: أمام أعيننا، تسعى دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية جاهدة إلى تغيير دور ساحة الأجندات في صراع "القوى العظمى" إلى وضع الأشخاص المؤثرين في العلاقات الدولية.

وبالتالي، ينبغي التأكيد على أنه في الظروف الحديثة، التي تتميز بتفاقم الصراع على النفوذ العالمي والإقليمي، تستمر العوامل الجيوسياسية في لعب دور حاسم في السياسة الروسية.

خلاصة القول فإنَّ الجغرافيا السياسية، التي ظلت لعقود عديدة من المحرمات في روسيا، تجتذب حاليا عددا كبيرا من الباحثين. وفي الوقت نفسه، فإن أهمية دراسة الأولويات الجيوسياسية لتنمية روسيا معترف بها ليس فقط من قبل المجتمع العلمي. إن وجود قسم خاص في مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي (وتوضيحه المستمر في الإصدارات الجديدة) يسمح لنا أن نستنتج أن القيادة الروسية تأخذ في الاعتبار أيضًا الجوانب الجيوسياسية في اتخاذ القرارات التي تحدد موقف روسيا في الساحة الدولية. يعتمد نظام الأولويات الحالي بشكل أساسي على الأهمية الجيوسياسية لمناطق العالم بالنسبة لاستراتيجية روسيا الدولية. في رأينا، فإن المجموعة المثالية لأهم اتجاهات السياسة الخارجية يجب أن تجمع بين النظر في العوامل المكانية مع الاهتمام الأقرب بالخصائص الحضارية للتعاون مع مختلف دول العالم الحديث.

1. -Кjellen R. Der Staat als Lebensfrom. Leipzig, 1917. С. 6 [↑](#footnote-ref-1)
2. -Mackinder H. J. Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction. N.Y., 1919. [↑](#footnote-ref-2)
3. - Brzezinski Z. The Great Chessboard. American dominance and its geostrategic imperatives. , 1999 [↑](#footnote-ref-3)